مع ديوان القاضي عياض اليحصبي

بقلم: عبدالحكيم الزبيدي
الإمارات العربية المتحدة

اطلعت على مقال الدكتور عدنان النحوي الموسوم : مع ديوان عياض اليحصبي وذلك في العدد (٤٦) من مجلة الأدب الإسلامي (الصفحات ٤٨ حتى ٥٤). وهو مقال تنزه فيه الدكتور النحوي في رياض ديوان القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤هـ،والديوان صادر سنة ٢٠٠١م عن مطبعة بني أزناسن بالمغرب بتحقيق الأستاذ محمد عيناق، وتقديم الدكتور حسن جلاب، ومراجعة الأستاذ علي الصقلي، كما ورد في مقال الدكتور النحوي.

يسر هذا الديوان المتتبع، ديوان القاضي عياض : جمع وتحقيق الأستاذ محمد عيناق، وتقديم د. حسن جلاب، ومراجعة الأستاذ علي الصقلي؛ إصدار مطبعة بني أزناسن، سلا، المغرب، في طبعته الأولى سنة ٢٠٠١م.

ولقد أحسن الأستاذ محمد عيناق بتحقيق هذا الديوان وإخراجه، ليظل عطاء علمائنا السابقين نبعا غنيا تغترف منه الأجيال المؤمنة علما وأدبا ولغة، وتظل بذلك أجيال المؤمنين متواصلة، وعطاؤها متصلا، ويظل كذلك المغرب متصلا بالمشرق، في أمة مسلمة واحدة، بإذن الله!

مع ديوان القاضي عياض اليحصبي

وللمغرب رجال في كل باب من أبواب العلوم والآداب. والقاضي عياض من أبرزهم، ومن الأقوال المتداولة المعروفة عنه، كما ذكر د.جلاب في تقديمه للديوان : « لولا عياض لما ذكر المغرب». وقول آخر : «المغرب كله حرم لأبي الفضل[2]».

والقاضي عياض هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عمرون المعدا إلى موسى بن عياض اليحصبي[3]. ولد سنة ٤٧٦ هـ بمدينة سبتة، ونشأ وعاش في عصر المرابطين والموحدين، ولازم علماء سبتة وأخذ عنهم. وكان رجلا من رجالات الفقه وعلما من أعلام المذهب المالكي، وقد ظل على مذهبه ثم يبدل مهما تبدلت الأحوال، وتقلبت الأيام، قال بذلك تجارب وحكمة ساعد بهما على المصالح العليا[4].

وقد جاء المقال - كما هو معتاد من شاعرنا وأستاذنا الكبير النحوي - ممتعا سلسا وكانت اختياراته الشعرية من الديوان جميلة ورائعة، ولا غرو فالدكتور النحوي شاعر يحسن اختيار الشعر كما يحسن البستاني اختيار الورد والأزاهير.

ومن الاختيارات الجميلة التي اختارها الدكتور النحوي القصيدة التي قدم لها بالكلمات التالية: « ومن طريف هذه القصائد قصيدته التي تأتي أبياتها مرتبة على سور القرآن الكريم »، ومطلعها:

في كل (فاتحة) للقول معتبرة
حق الثناء على المبعوث (بالبقره)

وأورد بضعة أبيات من القصيدة المذكورة.

وإتماما للفائدة أقول: إنني قد اطلعت على أبيات من القصيدة المذكورة في الجزء الرابع من كتاب (المرشد) للدكتور عبدالله الطيب - طيب الله ثراه، في معرض حديثه عن المدائح النبوية، ورأيته يعزوها إلى ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠هـ [1]. وقد ذكر الدكتور عبدالله الطيب أن ابن جابر نسجها على روي قصيدة أبي قردودة:

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا
ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرة

والبيت من أبيات لأبي قردودة الطائي يرثي فيها ابن عمار قتيل النعمان ونديمه،وكان أبو قردودة قد نهاه عن منادمته، والأبيات كما أوردها الجاحظ في (البيان والتبيين) هي:

إني نهيت ابن عمار وقلت له:
لا تأمنن أحمر العينين والشعرهْ
إن الملوك متى تنزل بساحتهم
تطر بنارك من نيرانهم شررهْ
يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا
ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرةْ

يقصد أنه كان كريما فحين قتل كفئت الجفنة التي كان يطعم منها المحتاجين.

وللمَقَرِّي صاحب (نفح الطيب) كتاب خصصه للحديث عن القاضي عياض أسماه(أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض) أورد فيه نماج من شعره ليس من

بينها هذه القصيدة. إلا أن المقري أورد القصيدة كاملة في كتابه (نفح الطيب) ونسبها إلى ابن جابر، على أنه أشار إلى أن القصيدة تنسب أحيانا إلى القاضي عياض، ونص كلمة المقري هي- والحديث عن ابن جابر:

« ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي ﷺ لكفى، وهي من غرر القصائد، وكثر من الناس ينسبها للقاضي الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض،وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر »، وبعد أن أورد القصيدة بتمامها قال : « وقد عارض منحاها جماعة فما شقوا لها غبارا».

ولعل نسبة القصيدة إلى ابن جابر الأندلسي هو الصحيح لما ذكره الدكتور عبدالله الطيب - رحمه الله - من ولع ابن جابر بالبديع والتزام ما لا يلزم مفتّنا في ذلك، كما في مقصورته التي التزم فيها قبل الألف حروف المعجم، وأولها:

بادر قلبي للهوى وما ارتأى
مما رأى من حسنها ما قد رأى
فقرب الوجد لقلبي حبها
وكان قلبي قبل هذا قد نأى

ثم بعد عشرة أبيات انتقل إلى الباء بعدها الألف اللينة، ثم إلى التاء، ثم إلى الثاء، وهكذا حتى استوفى حروف المعجم الثمانية والعشرين. وقد أورد الدكتور عبدالله الطيب نماذج منها، ثم قال : « وهي طويلة تدل على تمكن من اللغة واقتدار على النظم»[٢].

والقصيدة بتمامها في (نفح الطيب)، ومنها قوله في مطلع الأبيات التي تلتزم حرف الباء:

يا رب ليل قد تعاطينا به
حديث أنس مثل أزهار الربى
في روضة تعانقت أغصانها
إذ واصلت ما بينها ريح الصبا

وقوله في مطلع الأبيات التي تلتزم حرف التاء،وفيها تخلص إلى مدح النبي ﷺ :

تالله لا أعبا بعيش قد مضى
وزمان قد تعدى وعتا
مذ علقت كفّيَ بالهادي الذي
ساد الورى طفلا وكهلا وفتى

ثم يسير على هذا المنوال مع بقية الأحرف فلعل هذا مما يقوي نسبة القصيدة الرائية إلى ابن جابر، والله تعالى أجل وأعلم ■

الهوامش:

١ - عبدالله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الجزء الرابع (القسم الثاني)، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٧.

تساؤلات !!

أتساءل بين الحين والحين: هل انعدمت المشاعر الصادقة من قلوب الأحبة؟ ولماذا هذا الفتور الذي يتخلل هذه العلاقة؟ ولماذا تتذبذب أخوتنا حسب ظروف الحياة بين مد وجذر؟ ولماذا هذا الإحجام عن معرفة أخبار الأصدقاء؟ .. وتتكاثر عليّ الأسئلة ويتصدع فكري .. وأنتبه لنفسي باحثة عن العزاء فلا أجده إلا في ذكر الله وقراءة كتابه العزيز ... ويكون ختام سلوتي حين يستوقفني القلم ماصا شجوني ليزيل غبار الألم عن صدري المثقل بالوحدة.

❖ ❖ ❖

بعض المشاعر تعجز عن تخطي حدود الصمت .. فتبقى في بؤرة خاصة من الوجع تضرب بسياط الحزن، والقلم الصديق يقف حائرا مشدوها... لا يملك الأقدام التي يهرول بها ليخطف تلك المشاعر من زمهرير الجمود.

فوزية العمري - السعودية